بسم الله الرحمن الرحيم

الاثنين 22/10/2012 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة القيامة (6)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

فنحن في تفسير آيات من سورة القيامة.

أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ * لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾، [القيامة: 14-21].

الحديث أيها الإخوة كما سبق في الآيات الماضية حديث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة سيمر علينا جميعاً، الله عز وجل يقول بل الإنسان على نفسه بصيرة جعل الله تعالى للرجل حجة على نفسه.

لعل امرأ لا يرضى بشاهد عليه سواء كان هذا الشاهد شاهد عدل أو كان شاهد زور، فإن كان شاهد زور فالجميع لا يرضاه، لكن إذا كان شاهد عدل فربما بعض الناس لا يرضون به.

الله عز وجل لعدله المطلق يوم القيامة جعل الإنسان بصيراً على نفسه في الدنيا وفي الآخرة فأحياناً أنت في هذه الحياة الدنيا يمدحك كل الناس ويثني عليك أكثر الخلق ويصفونك بصفات يجعلونك عما قليل من التقديس بمكان لكن أنت أعلم بنفسك. ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾.

وأحياناً بالعكس ربما يأتي مجموعة من الأصحاب يذمون صاحبهم ويسمون صاحبهم بصفات سيئة لكن هو يعلم من نفسه وبصير من نفسه أنه منضبط بما أمر الله تعالى به.

أحياناً نحن نختلف ربما أنا أرى شيئاً أنه هو الصواب وأنت تراه أنه خطأ وأنت في مكانك متشبث برأيك وقولك وتعتقد من نفسك أنك على حق وأنا أعتقد من نفسي أني على حق.

وأحياناً مجتمعي يرى شيئاً أنه صواب ومجتمعك يراه بأنه خطأ.

وأحياناً في بلد معين يرى بأن هذا الأمر جيد وفي بلد آخر يرى بأنه سيء.

فمثلاً: الزنا في البلاد الشرقية هو سوء وفي البلاد الغربية هو حرية، شرب الخمر في البلاد الشرقية هذا أمر سيء وفي البلاد الغربية هذا عرف عام مقبول، الاختلاط والعلاقات الماجنة في البلاد غير المنضبطة في الشرع هو أمر عادي وانفتاح على المجتمع لكن في البلاد المنضبطة في الشرع هو محرم.

فما الفاصل بيننا؟ ومن الذي يضع معايير الصح والخطأ والحق والباطل؟

حتى لا يختلف الناس وكل واحد يتمسك برأيه ويعتقد بأنه هو الصواب أرسل رب العالمين لنا نحن المسلمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأرسل معه كتاباً وافتتحه ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، [البقرة: 1-2].

هذا الكتاب يا عبادي هو الحق المطلق؛ لذلك أخرج الله تعيين الحق من أيدي العباد فأنت لست مُخَوَّلاً أن تُعيِّن هذا الأمر بأنه حق أو باطل بل رب العالمين هو الذي يعين هذا الأمر حقاً كان أو باطلاً.

لذلك أهل العقيدة يقولون: هل الحُسن والقبح هما عقليان أم شرعيان؟

أي متى أقول هذا الأمر حسن وهذا الأمر قبيح.

هل هذا الأمر عقلي: أي تعالوا نفكر فإن ظهر بتفكيرنا أن هذا الأمر جيد فنقول جيد وإن كان سيء نقول سيء.

الفوائد البنكية: كل اِقتصادِيْ الدنيا من أربعمائة سنة يقولون: أن الفائدة البنكية شيء حسن وعقلهم الاقتصادي أوصلهم بأن الفائدة البنكية شيء جيد وعلى العكس هذه الفائدة تساوي التضخم النقدي الذي يحدث وهي تساعد في تحريك الأسواق وتساعد في انخفاض قيمة العملة وهي نوع من أنواع الشراكة، ودراسات ومخططات ودوائر وبرامج ودول تمشي كلها على الفائدة البنكية.

وبعد أربعمائة سنة اكتشف العقل البشري بأن الفائدة البنكية سيئة جداً والأزمة الاقتصادية التي أطاحت بالعالم واحد من أكبر مسبباتها القروض بفائدة والآن في العالم والدارسون في الاقتصاد يقولون: أفضل بنك في العالم من فائدته البنكية تساوي صفر.

يعني الفائدة بقيت أربعمائة سنة في العقل البشري شيء حسن والآن اكتشفوا بأنها شيء سيئ لكن الله أخبرنا بأن الفائدة البنكية ربا وأن الله يمحق الربا.

سألني بعض الإخوة ما معنى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾، [البقرة: 276]

المحق: يعني هذه الأزمة الاقتصادية، يعني دول اقتصادية تنهار، بنوك تنهار، مؤسسات كبيرة تنهار، فهذا هو المحق.

السؤال الحسن والقبح عندنا نحن المسلمين عقليان أم شرعيان؟

الجواب: الحسن والقبح شرعيان فإذا قال الشرع بأن هذا الشيء قبيح فهو قبيح ولو قلت بعقلك أراه حسناً، يعني هم كانوا يرون بعقولهم بأن الفائدة حسنة لكن الله عز وجل قال: بأنه قبيح إذاً سأضع عقلي تحت قدمي وأقول لربي سبحان ربي الأعلى سأسجد له وأستجيب له.

بالطبع عقلي لو كان كاملاً لوصل إلى ما أمر الله تعالى به، لكن لأن عقلي قاصر ظن بأن الفائدة البنكية حسنة.

الآن هناك قضية موجودة في العالم وعليها دراسات كثيرة رصاصة الرحمة هل هي أمر حسن أم أمر قبيح؟

رصاصة الرحمة: أي إذا كان عندنا مريض له من العمر ثمانون سنة أو سبعون سنة أصابته صدمة فتوقف تنفسه وتوقفت ضربات القلب عنده، والآن يوضع على الأجهزة في المشفى وهو في سُبات وغيبوبة إلا أن الدماغ لم يمت بعد (الموت في الطب والشرع يعني موت الدماغ) لكن هو غائب عن الوعي كاملاً قلبه على الجهاز يعمل وجهاز التنفس الاصطناعي هو من يقوم بالتنفس فهل يجوز أن نعطيه دواء لنقتله حتى يرتاح هو ويرتاح أهله وترتاح المشفى ويرتاح البلد من النفقات؟ هل يجوز أن نرفع عنه الأجهزة وهو يكلف كل يوم عدد من الآلاف وأهله بعد قليل سيدفعوا كل ما يملكون، والمجتمع سيدفع كثيراً؟ فما حكم رصاصة الرحمة في هذا الوضع؟

فمن كان يفكر في الحكم يقول: ارفع عنه الأجهزة ليرتاح هو ومن حوله، لكن الشرع ينهاني فيقول: هذه رصاصة الرحمة قتل للنفس، حرام ممنوع فلو أن عقلي يقول بأن هذا الرصاصة جيدة لكن الشرع قال لي: هذه سيئة إذاً سأرمي ما يقوله عقلي وسآخذ بما يقوله رب العالمين لأن الحسن والقبح شرعيان طبعاً.

الشرع له مبررات لأنه ربما أُستُخدمت هذه الرصاصة لقتل كثير من الناس ولم يكونوا في الحالة التي وصل إليها هذا المريض الذي ذكرنا حالته.

وهكذا أيها الإخوة قد أختلف أنا وأنت أين الحق فأنزل الله لنا الشرع حتى نحتكم إليه.

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ أنت بصير على نفسك هل أنت اقتربت من الشرع أم أنك ابتعدت عن الشرع فإن اقتربت من الشرع فأنت من أهل النجاة يوم القيامة لكن إذا كان أحدنا بعيداً عن الشرع...؟

شاب له من العمر ثلاثون سنة وله علاقات غير مشروعة مع فتيات لا يحللن له هذا إنسان بعيد عن الحق وليس بحاجة لأن أتحدث عنه أنا ولا أنت فالمجرم عندما يضع رأسه على الوسادة يعرف بأنه أجرم ويعرف بأنه مرتكب للآثام وأنه بعيد عن الشرع ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ويوم القيامة الله عز وجل سينطق جوارحه.

أحياناً تجد إنساناً آتاه الله من المال والجاه ما الله به عليم ولا يدفع زكاته، في المؤسسات الوضعية ونظام الضرائب هناك طرق حتى يأتي عامل الضرائب ويأخذ منك المال فالدولة مثلاً: تقطع عنك الكهرباء حتى تدفع ما عليك فهناك طرق لمحاسبتك في كل شيء، لكن في الشرع لا توجد هذه الأمور ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ .

لذلك كل واحد منكم يخرج زكاة نفسه من نفسه ولا أحد يفتح لك دفاترك ويقول لك: ما دخل عليك ويحاسبك به أنت لوحدك تحسب ولعلك إذا كنت ضعيفاً في الحساب أو تريد مساعدة تأتي بشخص وتقول له: تعال ساعدني حتى أدفع ما علي أمام الله هذا إذا كنت تريد نجاة أمام الله.

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

في كلمة معاذيره هناك فائدة مهمة: قال العلماء في معنى معاذيره:

1- قالوا معاذيره: أي ستوره أي ولو ألقى الستور عليه.

فمرة أنا أخلو بغرفة ولا أحد يراني فالله أرسل رسالة للعبد ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فغداً يوم القيامة أعضاؤك ستشهد عليك ربما أنت تكون في مكتب وليس هناك أحد وتفعل شيئاً بالأموال والأوراق فيوم القيامة ولو ألقيت ستورك واحتجبت عن الناس لكن رب الناس يسمعك ويراك ويعلم ما في سرك؛ لذلك اجعل علاقتك في هذه الحياة الدنيا ما دمت حياً مع رب العالمين.

ومراراً أقول أيها الإخوة والأخوات كل واحد بيننا إذا أراد أن يفعل شيئاً فليفعل لكن يجعل واحداً من حساباته بل أول شيء في حساباته رب العالمين، وبعد ذلك افعل ما شئت إذا أردت أن تؤذي إنساناً فلا مشكلة لكن تذكر أن هناك رب العالمين يسمع ويرى ويسجل فإذا كان يناسبك أن يواجهك بهذه الأذية فافعل وإن كان لا يناسب فلا تقدم على هذا الأمر.

شاب لا يريد الصلاة فلا حرج لا تصل لكن تذكر أن هناك رب العالمين سجل عليك وسيسألك فإذا كان يناسبك أن يسألك هذا السؤال فافعل لكن إذا كان لا يناسبك فلا تفعل.

أحد الشباب جاء لأحد الشيوخ قال: يا شيخ نفسي تغالبني ومراراً ما أعود إلى المعاصي، قال: يا ولدي لا بأس عليك أن تعصي الله عز وجل لكن بشروط خمسة، قال: ما هي؟

قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن في أرضه، فمن المعيب عليك أن تجلس بأرضه وتخالفه، قال: أين سأخرج فكل الأرض أرضه، قال: يا ولدي تسكن أرضه وتعصيه!

قال: هات الثانية، قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: كل الطعام طعامه، قال تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه!

قال: هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاعصه في مكان لا يراك، قال: أينما أذهب يراني، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه ويراك وتعصيه!

قال: هات الرابعة، قال: إذا أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت غداً فادفعه عنك، قال: كيف سأدفعه، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه ويراك ولا تستطيع دفع الموت عنك وتريد أن تعصيه!

قال: هات الخامسة، قال: غداً إذا تطايرت الصحف يوم القيامة وجاءت ملائكة العذاب لأخذك إلى النار فلا تذهب معهم، قال: لا أستطيع، قال: يا ولدي كيف تعصيه وأنت لا تستطيع هذه الخمسة؟! فأقبل الرجل على الله.

2- **المعنى الثاني للمعاذير**: قالوا: المعاذير هي الأعذار التي يضعها الإنسان لنفسه.

أحياناً شاب طالب جامعة بإحدى الكليات التي يوجد فيها الاختلاط شديد وبنات سافرات فيقول: ما أفعل؟ أقول له: الله يقول: ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فلا تلق أعذار.

ذكر المفسرون ثلاث عشرة مبرراً لسيدنا يوسف عليه السلام لكي يقع في الحرام لكن مع هذه الأعذار قال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾، [يوسف: 23].

العامل الطبعي: ففي طبيعة الإنسان الميل نحو المرأة	
هو شاب	غير متزوج
هو جميل	هي التي دعته ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾
هددته ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾	﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾
أبواب وليس واحد	كانت سيدته
كانت جميلة وذات منصب	لا يخشى أن تُنِمَّ عليه لأنها الراغبة
هو بلد غريب	هي غير ممتنعة وغير آبية

يا إخوان عندما يأمر الله بأمر أو ينهى عن نهي فهذا الأمر في مقدورنا جميعاً فلا أحد يوسوس له الشيطان فيقول لا أستطيع فعل هذا الشيء والله كلنا قادرين على غض أبصارنا وعلى الاكتفاء بالحلال وعلى ترك المال الحرام وعلى أن لا نؤذي إنساناً، لكن هناك مجاهدة مع الشيطان ومع هوى النفس ويعينك على هذا الأمر الصحبة الصالحة والإكثار من ذكر الله تعالى فكلما أكثرت من ذكر الله تعالى قوي إيمانك ولمة الملك عندك قويت على حساب لمة الشيطان لكن كلما أقللت من الذكر وكان أصحابك هم في طريق الشر قويت لمة الشيطان عندك وضعفت أمام وساوس الشيطان.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ .

الآن هناك موقف يصوره الله لنا في تصوير حالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما كان يتنزل عليه القرآن وكان رسول الله عندما ينزل عليه جبريل في القرآن جعل جبينه يتفصد عرقاً، فكان صلى الله عليه وسلم حريصاً أن يتلقى القرآن من سيدنا جبريل فكلما يتلوه عليه جبريل عليه السلام كان يرددها وراءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه رب العالمين بقوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، يا محمد لا تحرك لسانك بالقرآن تقرآ وراء جبريل لتحفظ الآيات ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، لا تهتم نحن سنجعله محفوظاً في قلبك، سنقرؤك إياه قراءة صحيحة ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يعني عندما يقرأ جبريل أن تستمع له ولا تحرك لسانك في الترداد وراءه ونحن نضمن بأن يبق القرآن عندك محفوظاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأنزل الله تعالى** ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ .

أي جَمعَه في صدرك ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ إذا قرأ جبريل فأنصت له ثم علينا أن نجعله محفوظاً في صدرك.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وبعد ذلك نحن نلهمك شرح وتوضيح هذا القرآن الكريم.

الآن هناك أمر مفيد علمياً أن نعرف شيئاً **كيف وصل إلينا القرآن؟**

يعني الآن لو أحداً قال: ما أدرانا نحن بأن هذا القرآن الذي نقرؤه بين أيدينا هو الذي قرأه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هل من المعقول أنه من ألف وأربعمائة سنة ولم يتغير شيء وهو يطبع ولم يحصل تغيير في الطبعة أو تحريف في الأحرف! فأي كتاب يطبع طبعات كثيرة وأي كتاب عادي نلاحظ أن هناك كلمة تزيد وكلمة تنقص وكلمة فاتحة وكلمة غامقة وأحياناً حركة من الحركات تغيرت فما أدرانا أن هذا القرآن هو نفسه الذي قرأه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

الجواب: نحن أيها الإخوة عُمدتنا في القرآن الكريم ليس في الكتاب وإنما عمدتنا في القرآن الكريم في صدور الرجال فالنبي صلى الله عليه وسلم حَفَّظ القرآن الكريم لعدد كبير من صحابته، والصحابة حفَّظوا القرآن الكريم لعدد كبير من التابعين، والتابعون حفَّظوا القرآن الكريم لعدد كبير من أتباعهم وهكذا... هذه السلسلة اسمها سلسلة الإسناد متصلة من وقت النبي صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا والحمد لله.

من قريب عليه رحمة الله توفى الله تعالى شيخاً في دمشق هو أعلى الشيوخ إسناداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الشيخ بكري الطرابيشي عليه رحمة الله رقمه سبع وعشرون، أي بينه وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سبعة وعشرون رجلاً وهذا أعلى إسناد في العالم والآن عندما مات الشيخ بكري الطرابيشي عليه رحمة الله صار الآن أعلى إسناد في الدنيا ثمان وعشرون لم يعد هناك سبع وعشرون.

فالشيخ بكري وإخوانه من الشيوخ حفظوا القرآن الكريم لطبقات، فنحن عمدتنا في القرآن الكريم ليس الكتاب لكن عمدتنا في القرآن الكريم حفظ القرآن في صدور الرجال لذلك الآن لو أن أحدنا يحفظ القرآن الكريم في بيته من ألفه إلى يائه وذهب أي أحد منكم فسَمَّعَ له

وأخذ مائة في المائة لا يعتبر حافظاً للقرآن الكريم حتى يذهب إلى أحد الشيوخ الذين لهم إسناد إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويسمع القرآن عنده من أوله إلى آخره فإذا أجازه الشيخ أصبح يسمى حافظاً.

الشاهد نحن العمدة في حفظ القرآن الكريم وصيانته إنما هي في صدور الرجال لكن هذا الكتاب الذي بين أيدينا الرجال هم الذي يضبطونه وهذا مساعد لما حفظه الرجال في صدورهم علماً بأن هذا القرآن الكريم محفوظ فلا يوجد كتاب على وجه الأرض تلقى عناية كما تلقاه المصحف الشريف.

المصحف الشريف معدودة سوره، معدودة آياته، معدودة كلماته، معدودة أحرفه، معدودة أشكاله (الفتحة والضمة والكسرة والسكون).

كان أي إنسان عنده مطبعة ويريد طباعة مصحف فيطبعه ويراجع وزارة الأوقاف أو دائرة الفتوى في بلده ويأخذ موافقة ويطبع المصحف بعد أن يأتي بخطاطين متعددين.

الآن العالم الإسلامي اتفق على طريقة موحدة هي طباعة المصحف بحيث مثلاً هذه المصاحف التي يسمى الآن مصاحف الحفاظ لو أنك فتحت مثلاً أي مصحف في الدنيا صفحة 310 فالكلمة الموجودة في رأس الصفحة هي نفسها في كل مصاحف الدنيا فأصبح الاتفاق حتى على شكل المصحف ولكن ما زال يوجد إلى الآن نسخ قديمة مختلفة عن هذا الكلام.

وأيضاً الله عز وجل أكرم خطاط سوري نال أيضاً موافقة يكاد نصف العالم الآن يطبع المصحف بتخطيطه، لماذا اعتمدوا حتى الخط؟ كي يكون حتى شكل المصحف واحد عند كل الناس؛ لذلك إذا سألك سائل ما أدراك أن هذا القرآن هو نفسه الذي قرأه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قل له هذا الكلام: أن الأساس في المصحف أنه من حفظ الصدور ثم تأتي السطور لتدعم هذا الشيء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.